

أثر الفلسفة العقلانية في الدراسات النقدية العربية

The Impact of Rationalist Philosophy on Arabic Critical Studies

د. لكحل نصيرة

جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف - الجزائر

n.lakehal@univ-chlef.dz

تاريخ الارسال: 2025-02-14 تاريخ القبول: 2025-03-08 تاريخ النشر: 2025-03-16

ملخص:

لقد تقاطعت الفلسفة مع العلوم الإنسانية والأدبية المختلفة واتصلت بالتقدي الأدبي في مصادره الأولى، وكان من نتائج ذلك أن ظهرت الآثار الفلسفية في معالجة النصوص الشعرية خاصة مع العديد من النقاد أمثال: ابن قتيبة وابن طباطبا، ودار الجدل حول مواضيع اللفظ والمعنى والصدق والكذب والوحدة الموضوعية، وفي هذه الورقة البحثية يتم التطرق إلى أثر الفلسفة العقلانية في الدراسات النقدية العربية القديمة.

الكلمات المتاحية: نقد؛ فلسفة؛ عقلانية؛ اللفظ؛ والمعنى؛ وحدة موضوعية.

Abstract:

Philosophy has intersected with various branches of the humanities and literary studies, establishing a connection with literary criticism from its earliest foundations. As a result, philosophical thought has significantly influenced the analysis of poetic texts, particularly in the works of critics such as Ibn Qutaybah and Ibn Tabataba. Central debates emerged around key issues such as the relationship between form and meaning, truth and fiction, and thematic unity. This study examines the impact of rationalist philosophy on classical Arabic critical discourse.

Keywords : Criticism; Philosophy; Rationalism; Diction; and Meaning; Thematic Unity.

1. مقدمة:

إن الموقف النقدي هو موقف فلسفي في أصله باعتبار أن الفلسفة هي «موقف من الوجود والموجودات»، فالناقد يصوغ نقده بمقتضى رأي يتبناه وهو في الأخير فلسفة، غير أن الفلسفة تحاول أن ترى الوجود كله، أما النقد هو موقف فلسفي من الأدب فقط، لأن الفلسفة في أبسط تعريفاتها أن يحمل الإنسان فكرة ويجيبها عن نفسه وعن الموجودات حولها، وعما يربطه بها من علاقات، وقد ظهر أثر الفلسفة اليونانية نتيجة التثاقف والاحتكاك العلمي عبر طرائق الجدل وأساليب المناظرة حتى استقرت علوم المنطق والفلسفة، ثم عن طريق الترجمة وبلغت مبلغا كبيرا، فظهرت آثار فلسفية متفرقة لبعض هذه النظريات العامة في النقد العربي، كتأثر النقاد بنظرية المحاكاة، كما ظهر الأثر في القضايا المتصلة اتصالا دقيقا بالشعر مثل قضية اللفظ والمعنى والصدق والكذب، ووحدة القصيدة، وفي هذه المداخلة سيتم الوقوف عند هذه القضايا الجوهرية والتي ساهمت في توجيه الفكر اللغوي و النقد العربي، وقامت على أساسه العديد من الروى النقدية العقلانية، بل وتأسست عليها الكثير

من توجهات التراث اللغوي العربي. وتنحصر قضايا فلسفة النقد في المواضيع التي ظهرت نتيجة تأثير النقد العربي بالفلسفة اليونانية خاصة، وقد تلخصت في ثلاثة مواضيع وهي اللفظ والمعنى، الصدق والكذب ووحدانية القصيدة.

-الفلسفة والنقد/ تجليات الربط:

وُلد النقد عند الفلاسفة اليونان حتى صار فرعاً من فروعها وكتابهم الأم "فن الشعر" مكتوب بخلفية فلسفية، ويمكن بسط الفلسفة اليونانية ممثلة في فلاسفتها، ولعل أول من وصلنا من تلك الفلسفة أفلاطون ممثلاً في جمهوريته الخالدة، حيث "كانت أعماله هي الشرارة الأولى التي أشعلت جميع المسائل والأفكار الفلسفية في العالم الغربي حتى اليوم"¹، وتتركز فلسفته أن هذه الأشياء التي يطرأ عليها التغيير والتبدل جاءت على مثال أشياء كاملة في عالم المثل حيث يرى أن "الحقيقة في العالم المثل وأن الوجود هو محاكاة لتلك الحقيقة الكاملة"²، فيفترض وجود الأصل الذي تتجه نحوه المحاكاة وأنها كانت مجرد ظلال بإزاء الحقيقة على حد رأيه، حيث "رأى أن الفن هو محاكاة وتقليد يبتعد عن المثل مرتين، مرة حين يقلد الأشياء المادية، ومرة حين يعرف أن هذه الأشياء سوى أشباح زائلة للمثال الأصلي"، وعندما يتكلم عن الفنون الإبداعية، فهو يرى مثلاً في حق الرسام ما يراه في حق الشاعر وأن ما يفعلانه ليس محاكاة لعالم المثل، وإنما هو محاكاة للعالم العادي وأشياءه، وبالتالي هو نسخ عن نسخ، وهو يعتبر أن الرسم والشعر، ليسا حقيقيين أي تقليد فقط.

والمبدأ الثاني الذي يعتمد عليه أفلاطون هو العقل حيث حاول تأسيس جمهوريته على أساس من المثالية التي يحكمها العقل والأخلاق ولا سلطان فيها للعاطفة، ومن نتائج ذلك ألا يسترسل الإنسان مع مصائبه وألا يكثر من الشكوى، ويعتبر أفلاطون قد أدخل لأول مرة مبادئ العقل والنظام والقانون في الطبيعة ووضح آثار هذا العقل في الكون والحياة الإنسانية والنفس البشرية فكان على رأس تيار عظيم الأهمية في تاريخ الفكر البشري عامة والفلسفة اليونانية خاصة ولم يغفل من تأثيره أحد من تلوه باستثناء الأبيقوريين بين تقريباً.³

وقد ظهر أثر الفلسفة اليونانية في الدراسات النقدية العربية نتيجة التثاقف والاحتكاك العلمي عبر طرائق الجدل وأساليب المناظرة حتى استقرت علوم المنطق والفلسفة، ثم عن طريق الترجمة وبلغت مبلغاً كبيراً في العصر العباسي، وهناك من يحدد هذه الشهرة بزمان البرامكة، ثم بزمان المأمون، وهناك من يحددها بعهد المنصور، وأن كتب اليونان في الطبيعة والطب والمنطق نقلت في عصره إلى اللغة العربية، ولعل الأصوب أنه كانت هناك ترجمة منذ القرن الأول إلا أنه كثر النقل في زمان المنصور ومن تلاه، ومع عصر المأمون كان هناك بيت الحكمة وكانت الترجمة قد وصلت حد الاكتمال والنضج، حيث استجاب الأدب العربي لمطالب مجتمع جديد بسبب اتساع الحضارة الإسلامية، واتصال العرب بالثقافات أخرى، وتعرفهم على حضارات أمم قديمة من أهمها اليونان

والفرس ، وظهر ذلك الأثر في النقد خاصة في العصر العباسي ، فقد ظهر فيه أثر النقد اليوناني قليلا أو كثيرا ، في حدود ما استطاع نقاد العرب فهمه.

وستوقف عند قضية اللفظ والمعنى، والصدق والكذب، ووحدة القصيدة عند ابن قتيبة في كتابه «الشعر والشعراء»، وابن طباطبا في كتابه «عيار الشعر».

1- اللفظ والمعنى: يعتبر الكثير من النقاد أنه من نتائج الآراء الفلسفية القول بالثنائية اللفظ والمعنى ، والتي تعود إلى مبدأ الثنائية، وهي من الأفكار التي نشأت مع وعي الإنسان الأول باعتبارها فكرة فلسفية فكانت مرحلته الأولى عبر تصور الروح والجسد وانفصالهما، ثم أصبحت هذه الثنائية مبدأ يفسر به الوجود والموجودات عند أغلب الفلاسفة ، وتطور هذا المبدأ الوجودي مع الفلسفة عبر تحليلاته المختلفة وصوره المتعددة باختلاف العصور والأزمان ، والتي تعود في أصلها لعلاقة الفلسفة بالشعراء أو بالشعر ، ولذلك قيل أن الفلسفة هي التي أنتجت عمود الشعر اليوناني أو نشأت بمحاذاته مع تبادل التأثير والتأثر، بل يمكن أن تعرف ذلك من أن صاحب كتاب " فن الشعر " لأرسطو وهو أكبر فيلسوف يوناني، ولك أن تفهم طبيعة التأثير والتأثر ، وكانت قبل ذلك المساحة الكبيرة للخيال المتجسد في الأساطير ، بحكايتها حكاية مستقلة عن الشخص ، لكن فيما بعد كان لانتصار الديمقراطية باعتبارها متجسدة في الطبقة التي تلي طبقة النبلاء ، والتي كانت مسيطرة قبل ذلك ، ولها أثر كبير في ظهور شخصية الفرد في الشعر ، وكان قبلها مثلاً هومر في الإلياذة والأوديسا ينظم القصائد الخاضعة للخيال المطلق من خلال أثر الأساطير ، أو ما يسمى بالملاحم دون أن يصلها بنفسه ومشاعره شأن كل شعر ، ثم كان من نتائج ذلك ظهور الشعر الغنائي مضافاً إلى الملاحم باعتباره نوعاً من أنواع الشعر ، وهو أكثر التصاقاً بالنفس البشرية وأكثر تعبيراً عن أحاسيس الفرد ومشاعره

وكان من تحليلات هذا الربط مع النظرة الأفلاطونية نظرية المثل التي فصل فيها على نحو واسع ، ومع أرسطو⁴ الهيولي والصورة» أي أن للموجودات عنصرين مادة غفل لا شكل لها وصورة تمنح هذه المادة شكلها⁴ ، وهذا المبدأ عميق الجذور في الفكر الإنساني وله تحليلات كثيرة واسعة امتد أثرها إلى غيرها من العلوم ، ومن ثمة انتقل إلى اللغة والأدب والنقد، وذلك للعلاقة الوطيدة بين الفلسفة والعلوم الأخرى ، حيث ذهب العلماء من أمثال زكي نجيب محمود إلى محاولة وضع حدود بين الفلسفة والعلوم الأخرى ، وهو يعترف في البداية أن تعريفها بشكل كامل وموحد يصدق في كل المعارف أمر صعب ، فراح يعدد الفوارق التي يحاول من خلالها وضع حدود أو شبه حدود بينها وبين المعارف الأخرى ، فيرى أن كل علم يلتزم جانباً واحداً من جوانب الكون يختصه بالدراسة ولا يكاد يمس الجوانب الأخرى ، مثل النقد الأدبي - وإن تأثر بالعلوم الأخرى - أما الفلسفة فتتخذ من الكون بأسره موضوعاً لدرسها ، ولهذا نجد لها فروعاً وآثاراً في كل العلوم ، وتسعى إلى توحيد المعرفة .

فكان من أثر الفلسفة في النقد الأبي بالإطار والمبادئ التي تشترك معه في معالجة الوجود، وعليه قلنا أننا نفهم من النقد خصوصيته لتعلقه بجانب معرفي واحد وهو الأدب في أشكاله المعرفية المختلفة ، وهي وإن تنوعت

تدخل تحت نطاق واحد وعنوان واحد وهو الأدب ، فتجد حدوده واضحة بدرجة يمكن مقاربتها أو التخصص في إحدى جوانبها ، وإن دخلت في نطاقه مجالات معرفية أخرى بفعل قوة التأثير أو نتيجة المتابعة مثل الفلسفة ومبادئها المختلفة مثل مبدأ الثنائية .

فلما كان الإنسان يقر بالثنائية اعتقد بثنائية اللفظ والمعنى وثنائية الشكل والمضمون، وعندما اتجه إلى رؤية الوجود كوحدة رأى القصيدة أيضا وحدة مكتملة الأركان .

لكن انفصال النظم الشعري وخضوعه لهذا المبدأ قديم الذي فرض التأثير الفلسفي — كما يرى البعض — يعود إلى النصف الثاني من القرن الهجري، واعتنى به العرب عناية كبيرة في كتبه ومؤلفاته الأدبية والنقدية ، والتي ظهرت مبثوثة في الكتب هنا وهناك ، ومن أولئك النقاد ابن قتيبة وابن طباطبا، وربما كانت هناك إرهابات تمهد لقيام هذا الأساس النقدي وشيوعه بذلك الشكل، أو يرجع إلى الأصل الفلسفي الواسع القائل بثنائية الروح والمادة أو خضوع الطبيعة إلى مبدئين، ويقابلها الطبيعة ذات المبدأ الواحد أو عدة مبادئ، ولقد اتضحت معالم انفصال اللفظ عن المعنى مع بشر بن المعتمر حينما رأى أنه من رام معنى كريما عليه أن يلتمس لفظا كريما، وأنه حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومنه تفهم أن النقاد العرب يجعلون المعنى مصطلحا دالا على معنيين ، المعنى الأول مقابل للفظ، والمعنى الثاني يقابل الأغراض الشعرية، فكأنهم يسمون الفخر والرثاء والحماسة أبواب المعاني، فيتخير الشاعر من الألفاظ ما يناسب المعنى الذي يكتب فيه فالغزل وما يناسبه من الألفاظ الرقيقة، والحماسة وما يناسبها من ألفاظ الجزالة إلى غير ذلك، ويقع المعنى الأول في سياق أخص من الثاني، ومنه ظهرت مناسبة اللفظ للمعنى فيعتبر النقاد مثلا شعر كثير بأنه حسن اللفظ والمعنى عادي، ويجمعون على أن الشعر الجاهلي معناه شريف ولفظه شريف أيضا، وينتقدون على جميل بثينة مثلا قوله :

أَلَا أَيُّهَا النَّوَامُ وَيَحْكُمُ هُبَّوْا أُسَائِلُكُمْ هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلُ الْحُبَّ

بأن اللفظ غير مناسب للمعنى، والأحرى به أن يكون في سياق الحرب، وليس في سياق الغزل. ويمدحون المعنى دون اللفظ واللفظ دون المعنى ومناسبة اللفظ للمعنى وعدم مناسبة ويقولون على المتنبي مثلا يتغزل بنفس حماسي، ونفس الشيء بالنسبة لثميم البرغوثي. ويأتون على اعتبار أن اللفظ والمعنى كيانان مستقلان، وتجد ذلك منثورا في الكتب القديمة إلا أنهم يدعون إلى الملائمة بينهما، حتى إنك تجد ذلك في عناصر عمود الشعر كما استقرت عليه فيما بعد.

وتجد أول عنصر في عمود الشعر "شرف المعنى وصحته" ⁵، وتجد الألفاظ الجزلة وهذا الفصل واضح، ثم يسير الأمر حتى يصل إلى انقسام النقاد بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى، وكل منهما يرى سر النظم في واحد منهما، فيرى الجاحظ مثلا أن السر في اللفظ وقد توقف عند هذه القضية أكثر مما توقف عندها غيره، وهو صاحب المقولة المشهورة من أن المعاني مطروحة في الطريق، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتحير الألفاظ وسهولة المخرج، وكان أثر فلسفة المعتزلة في المعنى واضحا وجعلت الناس يفهمون منه المعنى العقلي، أي ما يكون صاحب

فكرة واضحة ذات فائدة، وربما أرادوا من الشعر أن يكون كذلك أي يتصل بالمعاني المفيدة النافعة، والتي تتصل بالحكمة والتوجيه والنصح، وربما يليق بهم الفصل الأخير من معلقة زهير بن أبي سلمى الخاص بالحكمة والكثير من شعر المتنبي لأنه يسير على ذلك النهج.

وكان ابن قتيبة من الذين فصلوا فصلاً قاطعاً بين اللفظ والمعنى في كتابه «الشعر والشعراء»، ومن نتائج ذلك أن قسّم الشعر إلى أربعة أضرب :

ضرب حسن لفظه وجاد معناه مثل الشعر الجاهلي بإجماع النقاد.

وضرب حسن لفظه وقصر معناه.

وضرب جاد معناه وقصر لفظه.

وضرب قصر فيه اللفظ والمعنى.⁶

وهو تقسيم منطقي استوفى فيه ابن قتيبة جميع الممكنات وقد أثرت عليه الفلسفة العقلية وبيئة الفقهاء ، وكأنه كان يريد من الشعر أن يكون حكمة أو قولاً صالحاً ، ويظهر ذلك في اختياره للأبيات في الضرب الذي جاد معناه وحسن لفظه حيث اختار قول أوس بن حجر :

أَيُّهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا *** إِنَّ الَّذِي تَحَذِّرِينَ قَدْ وَقَعَا

ومنها قول أبو ذؤيب الهذلي :

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا *** فَإِذَا تَرُدُّ قَلِيلٍ تَقْنَعُ

ويظهر تحيزه للمعنى الصالح بالمعنى الفقهي لا بالمعنى الشعري، كما أنه رأى بالمعنى نفسه عدم وجود أي فائدة في أبيات كثير :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ *** وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا *** وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

ولم يخرج ابن طباطبا عن قضية الفصل بين اللفظ والمعنى ووجوب الملائمة بينهما « فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخّض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه »⁷ ، والمعنى الذي يقصده ابن طباطبا لا يخرج عن المعنى العقلي الذهني الذي يخرج بفكرة نافعة وهو أصل المعنى، والدعوة إلى الملائمة بين اللفظ والمعنى هي دعوة تضرر الفصل بينهما وتقره به ، إذ لو أنهما شيء واحد لما دعى إلى الموائمة بينهما، وهو يرى أن الشعر في المعنى وليس اللفظ، والمعنى هو المعنى العقلي الخاص بالنفع أو بمعاني الحكمة في أوج ظهورها.

يتكلم ابن طباطبا عن الشعر وكأنه نثر يجب فيه الوضوح والفهم والانكشاف التام، ولغة العقل الواضحة وذلك يتطلبه المعنى الحقيقي، وليس المعنى الشعري، ويرى ابن طباطبا ما يراه ابن قتيبة حيث يقيم الشعر على جهة من المعنى العقلي.

وقدامة بن جعفر هو الآخر يفصل بين اللفظ والمعنى منذ أن عرّف الشعر بأنه قول موزون مقفى يدل على معنى ويرى أن المعاني بمنزلة المادة والشعر كالصورة وهو نظير ما نجده عند أرسطو باعتبار أن الموجودات تتألف من عنصرين هيوولي أو مادة وصورة تمنح المادة شكلها، وقد كان على هذا الرأي الآمدي والقاضي الجرجاني حتى جاء عبد القاهر فوحد بينهما من خلال نظرية النظم، فرأى أن الألفاظ من حيث هي أصوات لدلائل المعنى، وعاب على من يقدمون الشعر لمعناه العقلي، ففصل بينهما ورأى أن المعنى المقدم هو المعنى الشعري الذي تتم به الصياغة وينشأ من الاستعارة والتشبيه... إلخ، وهو جوهر الشعر، والمعنى العقلي يقتصر على معاني الحكمة، وهو ليس من خصائص الشعر، وإنما ما يجعل الكلام شعرا هو الصياغة أي النظم، أما حازم القرطاجني لم يهتم بهذه القضية جدا، وظل الأمر على الفصل بينهما كما نراه من خلال استقرار عمود الشعر على اعتبار عنصر شرف المعنى وصحته لوحده وجزالة الألفاظ كنحصر آخر.

2/- الصدق والكذب : ظهر أثر الفلسفة في موضوع الصدق والكذب بداية من البلاغة العربية، وفي باب أضرب الخبر مما جعل المسألة يستفاض فيها على نحو من التوضيح الفلسفي العميق، ومن خلال اعتبار الصدق ضد الكذب كتعريف معجمي بسيط، ثم هو مطابقة الكلام للواقع بحسب اعتقاد المتكلم، ومعنى ذلك أن لصدق الخبر شرطين مطابقتها للواقع والآخر مطابقتها لاعتقاد المتكلم، فينتج بذلك أربع حالات، ويخرج منها ما كان ليس صادقا إذا كان الكلام مطابقا للواقع وغير مطابق لاعتقاد المتكلم، أو كان مطابقا لاعتقاد المتكلم ولم يكن مطابقا للواقع لم يكن تام الصدق، فالصدق مطابقتها للواقع والاعتقاد معا.

نشأ الصدق في الفكر ثم انتقل إلى الفن ومع الفن ينتقض كون الشعر مطابق للواقع وإنما هو مطابق لاعتقاد الشاعر، أي هو صادق في التعبير، «صدق الخبر مطابقتها للواقع، وكذبه عدمها، وقيل مطابقتها لاعتقاد المخبر ولو أخطأ»⁸، وقد قال النقاد: أن كثير عزة كان يتقوّل الشعر ولكنه صادق في التعبير، وتعتبر قصيدته «خليلِيّ هذا رُبْعٌ عَزَّةٌ فَاِعْقِلَا» رائعة وصادقة في الفن، ومنه ما يكون مطابقا للواقع وحقيقيا والشعر الجاهلي يعج بالأشعار الحقيقية، فامرؤ القيس كان يعبر عن نفسه وعن الواقع وزهير بن أبي سلمى، وحتى ابنه كعب كان صادقا وخائفا عندما قدّم البردة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن ليس شرطا في الشعر أن يكون صادقا ومطابقا للواقع، ويُحتمل الكذب فيه على اعتبار المبالغات والإفراط في التشبيه باعتبارها خيالا والخيال فيه الكثير من الكذب أو يكون في مقابل الصدق في وجه من الوجوه، كما يرى ابن طباطبا، وفي الشعر الجاهلي لم يكن هناك تصور لقضية الصدق والكذب، بل كان الشعراء يقولون الشعر على سجيّتهم، إلا ما كان من الأعشى مثلا، حيث يقول القصيدة يمدح بها شخصا ثم يقول لآخر قتلها فيه وفيك صدقت، حتى إذا جاء الإسلام أصبح

الشعر مقيدا بالواقع، فما كان موافقا له كان صادقا وما خرج عنه كان كاذبا، ولعله يتخلص في قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

وَإِنْ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ فَأَيْلُهُ *** بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدَتْهُ صَدَقَا

ومنه ذاعت المقولات من قبيل «أعذب الشعر أصدقه» و«أعذب الشعر أكذبه» فانقسمت الرؤيا بين الفريقين حتى قيل أن الشعر يزكى ويقوى بالشر، ولأن بالإسلام مثل حسان بن ثابت رضي الله عنه، حيث قيل أن شعره لأن بعد الإسلام، لأنه مقيد بشريعة تتطلب منه الصدق، وكان من نتائج ذلك مدح سيدنا عمر بن الخطاب لزهير بن أبي سلمى حيث قال أنه لا يعاظم بين الكلام ولا يمدح المرء إلا بما فيه.

لم يتكلم عن هذه القضية نقديا ناقد حتى جاء ابن طباطبا، وكان متأثرا بالفلسفة العقلية التي تشترط مطابقة الكلام للواقع مطابقة حرفية ويرى أن فسحة الشاعر إذا ضاق عليه باب الكذب أن يلجأ إلى المبالغة والغلو، والفرق بين الشعر والواقع كبير، حتى لا يضر الشاعر كذبه لأن الشعر ببيانه لا بصدقه، ويشترط ابن طباطبا على الشاعر أن يقص الخبر - أو الحكاية - كما هي مثلما نقل زهير قصة الهرم بن سنان والحارث بن عوف، وهي قصة يوافقها التاريخ، ومثل قصة اعتذارية النابغة وكعب بن زهير رضي الله عنه.

والصدق الأخلاقي الذي يقصده ابن طباطبا أن لا ينسب للآخرين ما ليس فيهم وأهم ما يظهر فيه ذلك هو المدح والغزل، ثم صدق التشبيه يرى أن يجب المقاربة بين المشبه والمشبه به، حتى إذا عكس لم ينتقض، ويرى أن الصدق شرط أي ما يوافق التجربة الشعورية، ومنه ذلك الأعرابي الذي سئل: ما بال المراثي أجود شعركم، قال: لأننا نقول وأكبادنا تحترق، وهذا الأعرابي يعد الصدق شرطا في الجودة، وهو يريد من الشعر أن يكون مطابقا للواقع وهذا يضيق على الشاعر سبل الخيال.

أما قدامة كان على الرأي القائل بأن «أحسن الشعر أكذبه»، والكذب في الشعر درجات أدناه الخيال وأقصاه الغلو، كما أنه يختلف باختلاف ضروب المعاني والأغراض الشعرية فهو يناسب مقام الغزل ومقام الفخر ومقام الرثاء والحماسة، وقد مال قدامة إلى الغلو وهو يرى أنه أحسن المذهبين عنده، وهو يرى في المديح مثلا أنه قد ضاق وابتدل فلا مناص من الغلو لمحاولة التجديد والبعث، إلا أنه يرى أن الغلو يكون في الحد الممكن والممتنع عنده هو الذي يجوز في تصويره الوهم مثل قول أبي نواس:

يا أَمِينُ اللَّهِ عِشْ أَبَدًا *** فَإِذَا أَفْنَيْتَنَا فَكُنْ

وهو يرى أن قول ذلك غير مقبول لا على صفة كونه شعرا ولا على كون ضرب المستحيل الذي يريد به الشاعر أقصى الممكن، لأن هذا المعنى مما لا يزايد عليه لأنه لا أحد ينجو من الموت، ولا يُقبل حتى على جهة الدعاء، ويرى أن الغلو الجائر أن يُسبق بـ «يكاد». مثل قول الأعشى:

مِلْهُ الْوِشَاحِ وَصِفْرِ الدَّرْعِ بِهَكْنَةٍ *** إِذَا تَأْتَى يَكَادُ الْخَصْرُ يَنْخَزِلُ

ومذهب جمهرة النقاد لا يرون الصدق أصلا من أصول جودة الشعر، فقد يكون الشاعر كاذبا، وشعره جيد، لأن العبرة عندهم بجودة الصياغة، أيّ النظم ومنه ما استقر عليه رأي الآمدي، حيث يرى أنه لا يُطلب من الشاعر أن يكون قوله كله صدقا.

أما عبد الفاهر الجرجاني مال إلى الصدق بحكم تأثره بفلسفة المتكلمين، حيث يقدم الصدق وما يقبله العقل، أما حازم القرطاجني فيرى أن الشعر تخيل، والتخيل يقع في الأقوال الصادقة والأقوال الكاذبة، والشعر غير واقع في أحدهما، بل قد يكون صادقا وقد يكون كاذبا، والعبرة بالجودة الشعرية، ولكنه يُفضل أن يقوم الشعر على الصدق، يظهر موقف النقاد من الشعر موقفا عقليا ينظرون إليه كما ينظرون إلى الفكر.

3-وحدة القصيدة:

يُعَدُّ موضوع وحدة القصيدة من المواضيع التي دار حولها جدل كبير، وكان الأمر متعلقا بالقصيدة الجاهلية على وجه الخصوص واعتبار تعدد المواضيع في القصيدة الواحدة على الشكل الجاهلي المعروف -من البدء بالنسيب والرحلة ثم مباشرة الغرض -منافي للوحدة الموضوعية بل اعتبار أن الانتقال من غرض إلى غرض دون التمهيد إلى ذلك الانتقال منافي للوحدة الموضوعية، ولعل المعترضين على هذا الشكل يخلطون بين وحدة الموضوع ووحدة القصيدة، أيّ أن يكون للقصيدة موضوعا واحدا ينتظمها من البداية إلى النهاية، والشعر الجاهلي خاصة بأسسه ومواضيعه التي قام عليه لا يفترض أن يكون على وجه من الوحدة الموضوعية حتى لا تختل وحدته، فمعلقة امرؤ القيس مثلا: كثر الطعن فيها من جهة الوحدة، ووصل الأمر إلى أن قيل أنها مجموعة من القصائد جمعت، لاختلاف المواضيع بين الطلل ووصف المحبوبة والفرس، ووصف السيل، لكن التأمل يقضي بأن القصيدة لا ينتظمها موضوع واحد، لكن ينتظمها شعور واحد يسير في سياق الذكرى، فالشاعر يتذكر المحبوبة والفرس والليل في سياق التحسر والتألم على ماضٍ ذهب ولن يعود، وليس يلزمه خلفية واقعية بحجة أن يتكلم في موضوع المحبوبة فقط، لكي يلزم أن تكون القصيدة طللية، ولا يلزم أن يختار وحدة الموضوع على وحدة الشعور، لأنه هو مالك القصيدة ومنشؤها على ضرب من التجربة الشعورية الصادقة، ثم إن الطعن كان في صميم القصيدة الجاهلية من جهة المقدمة الطللية وانفصالها التام في رأيهم عن ما بعد في السياق الشعري، حتى عييت القصيدة فيما يسمى بالاقتراب وهو سوء التخلص من غرض إلى غرض، ومُدحت القصيدة العباسية، وإنه كان لها السبق في تدارك ذلك الأمر، والشاعر كان يكتب القصيدة وتنتظم في ذهنه على ضرب من الوحدة الشعورية والنقاد كانوا يتكلمون عنها على ضرب من فهمهم وإدراكهم الخاص، ثم إن هناك نقاد آخرين يقرون تعدد المواضيع في القصيدة، ويقرون بصحة البدء بالنسيب لقربه إلى النفوس، وتم الحكم على القصيدة بأثر فلسفي، يقر بوجود وحدة القصيدة كما هي وحدة الوجود، لأن الشاعر وخاصة الجاهلي، كتب قصيدته بما يوافق نفسه وتجربته الشعورية.

أما ابن طباطبا، فهو يقر باختلاف المواضيع في القصيدة، ويرى من الحسن أن يكون التخلص من غرض إلى آخر بلطف ويسر، أي أنه يقر الانفصال الموضوعي، ويطالب بالاتصال القولي والشكلي، وهو يُشبه الشعر حتى

بالرسائل « فالشعر رسائل معقودة والرسائل شعر »⁹، ويرى أنه له فصول كفصول الرسائل، والشاعر يجب أن يصل كلامه بعضه ببعض، ويرى أنه يجب أن تكون القصيدة ككلمة واحدة في اشتباه أولها وآخرها ويكون خروج الشاعر من معنى إلى آخر خروجاً لطيفاً، وهذه هي فكرة القرآن التي تكلم عنها الجاحظ¹⁰، إلا أنه يشترط أن يكون حسن التخلص بين الغرضين ظاهراً، أيّ لفظي وإن كانا في جوهر يقيان منفصلين.

وهذه وحدة يقرأها العقل والمنطق وهي غير الوحدة التي يقرأها الشعور أو التجربة الشعورية، وقد كان نظر أرسطو في مسألة الوحدة واستخلص ما يكون عليه من أشعار هوميروس، ويرى أن وحدة الخرافة مثلاً لا تنشأ من كون موضوعها شخصاً واحداً لأن شخص الحياة الواحد تنطوي على ما لا حد له من الأحداث التي لا تكون وحدة، ويرى أن هوميروس حينما ألف الأوديسا، جعل مدار الفعل واحداً بالمعنى الذي يقصده، وكذلك فعل في الإلياذة بحيث يكون الفعل تاماً بحيث لو نقل جزء أو انفرط عقد الكل تزعزع، وهو يقصد هنا الملاحم والدراما وليس ضروب الشعر كما لكل شعر خصوصية، حيث يرى أنه ينبغي للشاعر سواء أكان الموضوع الذي يتناوله قديماً أم مبتدعاً أن يبدأ بتخطيط عام له، ثم يفصل قطعه، ويمد أطرافه ثم يضيف في موضع آخر، ثم إذا فراغ من وضع الأسماء من بعد، فينبغي أن يتناول القطع فيفضل في كونها من ينتمي إلى الموضوع¹¹، ولا يمكن بحال تطبيق أسس الشعر اليوناني على العربي والعكس صحيح، وبعيدا عنهم رأينا نشأة وحدة القول مع الجاحظ في رؤيته لرؤية بن العجاج حينما قال بالقران ولم يكن الشاعر على اطلاع عليها، كما أن قضية القران لم تخرج عن حسن التخلص من غرض إلى غرض¹²، لذلك وجدوا في المحدثين ما يناسب رؤيتهم لأن توحيد الموضوع يقصي كل الشعر الجاهلي، وإنما العبرة بالوحدة الشعورية فقط، وربما كان النقد متأثرين بالفلسفة الأرسطية في بناء صرحهم النقدي الخاص بوحدة القصيدة في موضوعها ومنه جاء نقدهم للشعر الجاهلي.

خاتمة:

ألمَّ النقد العرب بكثير من الأفكار الفلسفية، ووظفوها في مصنفاتهم في الحياة العلمية المشعبة، وهذه الحياة العلمية أثرت في النقد تأثيراً بعيداً لا في ظواهره فقط ولا في أشكاله، بل في جوهره وحقيقته والقضايا الداخلية المتعلقة بحقيقة الشعر، وفي الثقافة التي يتصور منها، حيث أصبح النقد يقوم على البلاغة والثقافة والفلسفة، وكل ما دخل في الذهن العربي من المعارف الفلسفية، حتى أصبح نقداً متشعب النواحي مختلف الأمزجة دقيق متأثر بكل ما جاء به من الفلسفة في صور متعددة كما رأينا مع ابن قتيبة وابن طباطبا في أهم القضايا الشعرية.

الهوامش:

¹ - أحمد المنيأوي، جمهورية أفلاطون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط 1، 2010م، ص 15.

² - سعيد عدنان الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي، دار الرائد، بيروت، لبنان، ط 1، 1987، ص 16.

³ - أميرة حلمي مطر، المرجع السابق، ص 221.

⁴ - سعيد عدنان، المرجع السابق، ص 136.

- ⁵ - محمد الطاهر بن عاشور، شرح المقدمة الأدبية، مكتبة دار المنهاج، الرياض، السعودية، ط1، 1431هـ، ص 103.
- ⁶ - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1958م، ج1، ص 64-65.
- ⁷ - محمد أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق : عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2005م، ص 11.
- ⁸ - القزويني الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة، شرح : عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط1، 1904م، ص 38.
- ⁹ - ابن طباطبا العلوي، المرجع السابق، 81.
- ¹⁰ - الجاحظ، الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م، ص 68.
- ¹¹ - شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي، لبنان، ط1، 1993م، ص 236.
- ¹² - الجاحظ، المرجع السابق، ص 68.

مراجع البحث:

- أحمد المياوي ، جمهورية أفلاطون ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ط 1 ، 2010م
- سعيد عدنان، الاتجاهات الفلسفية في النقد الأدبي، دار الرائد، بيروت، لبنان، ط1، 1987
- محمد الطاهر بن عاشور، شرح المقدمة الأدبية، مكتبة دار المنهاج، الرياض، السعودية، ط1، 1431هـ
- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق : أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1958م
- محمد أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق : عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2005م
- القزويني الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة، شرح : عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط1، 1904م
- الجاحظ، الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م
- شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي، لبنان، ط1، 1993م